

العبرة في أحد

كانت الهزيمة في أحد درساً ضرورياً للمسلمين

إن الذي يستعرض مواقف غزوة أحد، ويتأمل ما كان فيها من الحوادث والصور، يعتقد أنها كانت شيئاً لا بد أن يكون، ودرساً كان لا بد أن يتلقاه المسلمون وهم في أول عهدهم بالقتال في سبيل الله. فقد "كانت الهزيمة في أحد أول هزيمة تصدم المسلمين الذين نصرهم الله بيدر وهم قليل، فكأنما وقر في نفوسهم أن النصر في كل موقعة هو الأمر الطبيعي، الذي لا يتخلف أياً كانت الأحوال والظروف. . ومهما يكن تصرفهم وتعددهم عن أسباب النصر الحقيقية، من استعداد وطاعة، وتغلب على شهوات النفس ومطامعها، وثبات للشدة واتجاه إلى الله"^(١). فأراد الله سبحانه أن يعلم عباده المؤمنين أن النصر لا يكون إلا لمن يأخذ بأسباب النصر، وأن الهزيمة لا تكون إلا على من يأخذ بأسباب الهزيمة، وأن الله لن يتخلى عن المؤمنين

(١) في ظلال القرآن.

ما داموا يخلصون له النية والعمل؛ فإذا ما شغلهم عنه شاغل من أعراض الحياة الدنيا، فإنه يتخلى عنهم بمقدار ما يشغلهم من ذلك الشاغل، ولا يكون معهم حتى يكونوا معه بقلوبهم وحواسهم وظاهرهم وباطنهم.

خرج المسلمون إلى أحد وهم على غير اتفاق

لقد تعددت في هذه الغزوة الصور والألوان، وتوجت حوادثها تبعاً لتموجات القلوب والنيات.. فقد خرج المسلمون لها وهم - في ظاهر أمرهم - جمع ملتئم. يتلهب حماسة إلى لقاء العدو، ويفيض شوقاً إلى الموت في سبيل الله. فما كادوا يقطعون بعض الطريق حتى ظهر الخلاف بينهم ودب الشقاق في صفوفهم، فرجع عبدالله بن أبي بثلث الجيش، فتصدع بذلك البناء الملتئم، وتزلزلت أركانه حتى كاد يسقط منه شطر آخر، لولا أن تدارك الله المؤمنين برحمته، فعصم بني سلم وبني حارثة من الشقاق الذي أوشك أن يكون: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١). وإذن فقد سار المسلمون بعد ذلك إلى المعركة، وهم على حال أشبه ما تكون بحال قريش حين ساروا إلى معركة بدر، بعد أن تخلف

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٢.

عنهم بنو زهرة وبنو عدى فى الطريق. نعم إن الله كشف للمؤمنين بذلك عن بعض خفايا القلوب المريضة فى جماعتهم، ووقاهم بذلك شرًا كثيرًا؛ ولكن الفعلة فى ذاتها كانت ظاهرة من ظواهر الضعف، وبادرة من بوادر الهزيمة، وقد أوشكت عدواها أن تسرى فى صفوف الجيش، ولكن الله سلم.

خالف الرماة أمر الرسول ﷺ

فلما التحمت المعركة بدت ظاهرة أخرى من ظواهر الضعف، فى تنازع الرماة وتهافتهم على الغنيمة، ومخالفتهم أمر رسول الله ﷺ برغم تحذيره لهم ألا يغادروا أماكنهم. ومما لا شك فيه أن الطاعة هى قوام النظام فى الجندية، وعنوان الإخلاص فى الجندي؛ وعلى أساس الطاعة يضع القائد خطته ويحدد موقفه من المعركة، فإذا لم تكن هناك طاعة لم تكن هناك خطة، لأن القائد إنما يضع خطته بعد أن يقدر كل الظروف التى تحيط به؛ وعلى أساس هذا التقدير يرسم خطوات السير التى يسد بها كل ثغرة، ويضمن بها تحقيق النصر على عدوه. وهو حين يضع خطته ويرسم خطوات السير فيها، إنما يضعها وهو موقن أن كل خطوة فيها ستنفذ كما رسمها هو؛ فإذا ما انعدمت الطاعة فقد فسدت الخطة بلا شك، وصار الأمر فوضى لا تؤمن عواقبها.. وهذا ما حدث فى وقعة أحد؛ فقد

خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ وهو القائد الأعلى، وخرجوا على أميرهم عبد الله بن جبير وهو قائد كتيبتهم، واندفعوا مع رغباتهم في احتياز الغنائم؛ ففسدت بذلك الخطة التي وضعها القائد، ورتب خطواتها على أساس الطاعة التامة من الجنود. فكان عصيان الجنود سبباً في فساد الخطة، وكان فساد الخطة سبباً في اضطراب الجيش، وكان اضطراب الجيش سبباً في تحول النصر إلى هزيمة.. وقد أوشكت هذه الهزيمة أن تكون ساحقة، لولا رعاية الله ولطفه.

ما الذي دفع الرماة إلى هذه المخالفة؟ أهو التمرد والخروج على طاعة القائد؟ أم هو الحرص على اغتنام الغنائم وجمع الأسلاب؟ أم هو خطأ التقدير لظروف المعركة وملابساتها؟.. إن الروايات كلها مجمعة على أن الرماة عصوا أمر أميرهم عبدالله بن جبير، وأن أميرهم عبدالله حذرهم عاقبة الخلاف، وذكّرهم وصية الرسول لهم وتحذيره إياهم؛ ثم هي مجمعة كذلك على أنهم لم يتركوا أماكنهم إلا حين رأوا الأعداء منهزمين، ورأوا إخوانهم قد عكفوا على الغنائم والأسلاب يجمعونها وهم آمنون.. ويذهب بعض الرواة إلى أن الرماة لم ينزلوا - حين نزلوا - مخالفين عن أمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، ولكنهم تأولوا قوله، وظنوا أنه ما دام العدو قد انهزم، فلا بأس من

مغادرة المواقع والاشتراك في جمع الغنائم.. على أنه مهما يكن تفسير هذه الظاهرة فقد وصفها القرآن بأنها معصية، وظاهرة من ظواهر الضعف البشري لا بست هذه القلوب المؤمنة، فصرفت عن الهدف الأسمى الذي جاءت تقاتل من أجله، إلى غرض تافه من أغراض الحياة الدنيا، فكان الجزء من جنس العمل:

﴿فَأَنَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍ لَكَيْلًا تَمَحَّزْنَا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١).

وهكذا أدرك المؤمنون سنة من سنن الله في خلقه؛ فعرفوا أن النصر لا يكون إلا بأسبابه، وأن الهزيمة لا تكون إلا بأسبابها، وأن الله يكون مع المؤمنين حين يكونون معه بكل نفوسهم، ويتخلى عنهم حين يشغلون عنه بشاغل ما.. وهامهم أولاء يرون رأى العين أن الله قد نصرهم على العدو حين جعلوا همهم قتل العدو؛ فلما انصرفت همهم إلى جمع الغنائم تخلى الله عنهم، فكانت الكثرة والهزيمة عليهم.. ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٣. (٢) سورة آل عمران الآية ١٥٢.

تفرق المسلمون وشغلوا بأنفسهم

وظاهرة أخرى من ظواهر الضعف في صفوف المؤمنين كشفتها هذه المعركة، ذلك أنهم لم يتضاموا ويتكثروا حين أحاط العدو بهم، بل تفرقوا في كل وجه حتى قيل إن بعضهم فرّ إلى المدينة فلم يمنعه من دخولها إلا الحياء، وحتى شغلهم أمر أنفسهم عن أمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فتركوه في المعركة وحيدًا يعانى وطأة العدو، في قلة من الرجال ما كانت لتغني عنه شيئًا لولا رعاية الله.. ففي هذه الغمرة التي كان يجب أن يحيط الجيش فيها بقائده ورسوله. تخلى الجيش عن قائده ورسوله وشغل بأمر نفسه، حتى أوشكت أن تقع الكارثة بموته، صلى الله عليه وسلم. ومن العجيب أن يَغْفُل المسلمون عن رسول الله ﷺ في هذه الغمرة، وهو يلاحقهم بصوته ويتابعهم بندائه، وهم معنونون في الحرب، مشغولون بأمر أنفسهم، لا يلتفتون إلى شيء مما عداهم: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ﴾^(١).. ففي هذه العبارة الموجزة رسم القرآن للمؤمنين مشهدًا كاملاً للفرار، يصور "حركتهم الحسية وحركتهم النفسية معًا؛ فهم مُصْعِدُونَ

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٣.

هرَّبًا في اضطراب ورعب ودهش، لا يلتفت أحد إلى أحد من الهول، ولا يجيب أحد داعي أحد من الذعر، والرسول يدعوهم وهم مصعدون^(١) فلا يلتفتون إليه ولا يستمعون له.

لقد كانت هذه زلة من زلات الضعف البشرى مرت بالمؤمنين في تلك الساعة الحرجة، فأراد الله أن يكشفها للمؤمنين حتى يعاينوها ويلمسوا آثارها، ثم يغفرها لهم بعد ذلك كيلا يعودوا لمثلها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٢).

كف بعض المؤمنين عن القتال حين سمعوا بموت رسول الله

وظاهرة أخرى من ظواهر الضعف، كشفتها هذه الواقعة حين شاع نبأ موت رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فقد كف بعض المؤمنين عن القتال وألقوا بأيديهم^(٣)، وقال بعض الذين كفوا عن القتال: "ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي، فيأخذ لنا أمانة من أبي سفيان!.. يا قوم، إن محمداً قد قتل، فارجعوا

(١) في ظلال القرآن.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٥.

(٣) ألقوا بأيديهم: استسلموا للهزيمة.

إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم". . . كأننا ظنوا أنهم قد أخطأوا بحضورهم إلى القتال، وأن الحزم كان فيما فعله ابن أبي من الرجوع؛ وكأننا جاءوا إلى القتال، لا عن عقيدة يدافعون عنها ويموتون في سبيلها، بل جاءوا إليه متورطين، إما طواعيةً لأمر الرسول وخرجوا من مخالفته، وإما وفاء بالعهد الذي أعطوا على أنفسهم بالدفاع عنه؛ فلما مات ذهب السبب الذي من أجله يقاتلون، فلم يبق للقتال محل.

وهو خطأ كان لا بد أن يعرفه المسلمون؛ لما كان الهدف الذي يدافعون عنه هو محمد، ولا كان الغرض الذي يقاتلون من أجله هو الرسول؛ إنما كان الهدف الأول والأخير هو نصر دين الله وإعلاء كلمته، وهي العقيدة التي آمنوا بها وخرجوا للدفاع عنها. لما كان يجدر بالمؤمنين أن يلقوا بأيديهم ويستسلموا للهزيمة مهما كان الأمر، بل كان عليهم أن يقاتلوا عن عقيدتهم حتى يُعذروا إلى الله من أنفسهم؛ فإنهم إنما يدافعون عن عقيدة في دين الله لا في شخص الرسول؛ فإذا كان الرسول قد مات فإن الله حي لا يموت: ﴿وما محمد إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾^(١).

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

وطائفة قد اهتمهم انفسهم

وظاهرة أخرى من ظواهر الضعف سجلتها معركة أحد؛ ذلك أن فريقاً من المسلمين لم يكونوا قد آمنوا بعد بمبدأ التضحية في سبيل العقيدة، ولم يكونوا قد أدركوا بعد سنن الله في الكون؛ وكأنا كانوا يقيسون صلاح العقيدة وفسادها بما يصيب أتباع العقيدة من نصر أو هزيمة، أو كانوا يظنون أن صلاح العقيدة وحده كاف لأن ينصرها، ولو لم يأخذ أصحابها بأسباب النصر، فلما هُزموا في هذه المعركة أخذوا يتساءلون: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟﴾ كأنما يعبرون بهذا عما يخامر نفوسهم في شأن هذه العقيدة، أم هي عقيدة صالحة ودين حق؟ فإذا كانت كذلك فلم كان هذا القتل وهذه الهزيمة؟

وقد صور الله حال هذه الطائفة وصحح لها خطأها بقوله سبحانه: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ: إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبَيِّنُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا، قُلْ: لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ

الصدور^(١).. فكشف الله بهذا عن خبيثاتهم؛ وعلمهم أن النصر والهزيمة لا صلة لهما بصلاح العقيدة أو فسادها، وأن الموت والحياة لا صلة لهما بالحرب أو بالسلم؛ إنما هي سنن مرسومة، وآجال معلومة؛ فمن أخذ بأسباب النصر كان له النصر، ومن جاءه أجله سعى إلى مضجعه من الأرض طائعاً، ليموت حيث كتب الله له أن يموت.

بلاء حمزة

على أنه كانت إلى جانب هذه الصور صور أخرى، تنبئ عن القوة والبطولة وصدق الإيمان؛ فقد كان حمزة بن عبد المطلب يخوض في هذه المعركة كما يخوض الجمل الأورقي^(٢)، يهْدُّ الناس بسيفه هذا ما يقوم له شيء، حتى قتله وَخَّشِي؛ ذلك العبد الحبشي الذي خرج من مكة، وهدفه الأول والأخير أن يقتل حمزة، ليشتري به حرته؛ لما زال يترصده ويلاحظه حتى انتهز غفلة منه، فسُدَّ إليه حرته ثم رماه بها، فوقعته في ثُنْبِهِ^(٣) حتى خرجت من بين وِرْكَيْهِ؛ فلما رآه قد أسلم الروح

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٤.

(٢) الذي يجمع لونه بين البياض والسواد، ولعل هذا النوع من الجمال كان معروفاً

بالقوة.

(٣) الثنة: ما بين السرة والعاية.

ذهب إلى حربته فانتزعها منه، ثم رجع إلى العسكر فقعده فيه،
لا يبغى سواه شيئاً آخر.

بلاء أبي دُجَّانة

وكان أبو دجَّانة مثلاً للبطل الواثق بنفسه، المُدِلُّ بقوته
وشجاعته؛ فقد روى أن رسول الله ﷺ صفَّ أصحابه للقتال،
ثم أخذ سيفاً فجعل يعرضه على أصحابه قائلاً: «من يأخذ
هذا السيف بحقه؟» فقال أبو دجَّانة: وما حقه يا رسول الله؟
قال: «أن تضرب به في العدو حتى ينحني». فقال أبو دجَّانة:
أنا يا رسول الله.. فأخذه؛ وكانت له عصابة حمراء تسمى
عصابة الموت، وكان إذا اعتزم القتال عصب بها رأسه؛ فأخرج
عصابتها فاعتصب بها، ثم أمسك السيف فجعل يتمايل به أمام
الصفوف في تخايل وعُجْب؛ ويقول منشداً:

«أنا الذي عاهدت خليلي ونحن في السُّفْحِ لدى النخيل
ألاً أقوم الدهرَ في الكيول»^(١) أضرب بسيفِ الله والرسول»

فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إنها مِشِيَّةٌ يُبَغِضُهَا
الله إلا في مثل هذا الموقف».. ثم نزل إلى المعركة فأبلى فيها

(١) الكيول: مؤخرة الصف.

أحسن البلاء، ودافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الدفاع؛ فكان مثلاً عالياً في التضحية والفداء.

بلاء أنس بن النضر

وكان أنسُ بن النضر مثلاً للمؤمن الصادق، الذي يَفنى في عقيدته ويحسَن الدفاع عنها؛ فقد روى أنه مر بنفر من المؤمنين وهم قعود قد ألقوا بأيديهم، فقال: «ما يقعدكم؟» قالوا: «قتل رسول الله، صلى الله عليه وسلم!» قال أنس: «فما تصنعون بالحياة من بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه!» ثم جعل يقاتل حتى قتل، فوجد به بضعٌ وثمانون ضربة، قد شوَّهت بها هيئته واختلطت معالته، حتى ما استطاعت أخته أن تستدل عليه إلا ببتانه.

بلاء سعد بن الربيع

وقاتل سعد بن الربيع حتى أُثخن بالجراح؛ فمر به بعض الصحابة وهو يجود بنفسه، فقال له: «أما علمت أن محمداً قد قتل؟» فقال سعد: «أشهد أن محمداً قد بلغ رسالة ربه؛ فقاتل عن دينك، فإن الله حي لا يموت!»

بلاء عبد الله بن جحش

وضرب عبد الله بن جحش مثلاً عالياً في تمني الشهادة والرغبة في ثواب الآخرة؛ فقد روى أنه تمني على الله أن يموت شهيداً، وأن يمثل الأعداء به غاية التمثيل، فقال: «اللهم إني أقسم عليك أن نلق العدو غداً، فيقتلونني، ويقترون بطني، ويمثلون بي؛ فألقاك مقتولاً قد صنع هذا بي، فتقول: فيم صنع بك هذا؟ فأقول: فيك». .. فقاتل حتى قتل، ووُجد وقد صنع به الأعداء ما تمني.

دروس عالية يتلقاها المسلمون عن رسول الله في هذه الغزوة

ولقد ألقى رسول الله ﷺ على أصحابه في هذه الغزوة دروساً عالية في احترام الشورى، وفي صدق العزيمة، وفي ثبات القلب، وفي احتمال الأذى والعفو عن المسيء. .. فقد خرج، صلى الله عليه وسلم، لهذه الغزوة وهو كاره للخروج، ولكنه خرج نزولاً على رأى أصحابه. فلما أحس أصحابه أنهم قد استكروه أرادوا أن ينزلوا عند رأيه، فأبى أن يتردد في الخروج بعد أن عقد العزم عليه؛ «فإن للمرء أن يترث ويستشير

ويقلب أوجه الرأي ما يشاء، أما حين يتهمى من الاستشارة والتفكير، ثم يختار خطة ويعتزم، فلا سبيل بعد ذلك إلى تردد ولا إلى إعادة الأخذ والرد؛ وتيمض فيما اعتزم، فإن العودة إلى تقليب وجوه الرأي بعد هذا إنما هي ضعف وتردد، يُفضيان إلى التارجح الدائم الذى لا ينقطع^(١).

وإن فى صموده، صلى الله عليه وسلم، للعدو فى هذه الساعة الحرجة؛ وفى ثباته والمسلمون من حوله يفرون إلى حيث ينجو كل بنفسه من الموت؛ وفى دعائه للمسلمين يشجعهم ويقوى قلوبهم، وهم لشدة ما يرون من الهول لا يسمعون ولا ينظرون؛ وفى تماسكه والخطر يحيط به من كل جانب، والأعداء مُتَكَاثِرُونَ عليه يريدون أن يشفوا بقتله غليل أنفسهم.. إن فى كل هذا لدليلاً على مبلغ ما آتاه الله من شجاعة القلب، ورباطة الجأش، وقوة اليقين بالله عز وجل.

وإن فى هذه: الصورة التى رسمها القرآن له وللمسلمين، وفيهم الأبطال والصناديد وأولو البأس والقوة.. هم فى فزعهم وجزعهم مُصْعَدُونَ لا يلوون على شىء، وهو فى ثباته وبقينه يدعوهم فى أخراهم وتُهبب بهم ألا يفروا.. إن فى هذا لَقرْناً

(١) فى ظلال القرآن.

بعيد المدى بين شجاعة وشجاعة، وبين قوة وقوة، وبين يقين ويقين.

وعلى رغم ما أصابه، صلى الله عليه وسلم، من الجراح بسبب فرار المسلمين عنه، لم يَعْتَفْ عليهم ولم يلم منهم أحداً؛ بل عفا عما كان من تقصيرهم، وجعل يواسيهم ويَشُدُّ من عزائمهم، ويقول لهم: «لن ينالوا منا مثلها حتى نستلم الحجر».. وقد أثنى الله، عز وجل، عليه في ذلك إذ يقول سبحانه: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(١).

كانت هذه الغزوة تجربة قاسية تعلم المسلمون منها دروساً كثيرة

لقد كانت هذه الغزوة تجربة قاسية، «وامتحاناً ثقیل الوطأة، تحَّص السرائر، ومزَّق النقاب عن مخبئها، فامتاز النفاق من الإيمان؛ بل تميزت بها مراتب الإيمان نفسه، فَعُرِف الذين ركلوا الدنيا بنعالهم فلم يعرجوا على مطمع من مطامعها، والذين مالوا إليها بعض الليل، فنشأ عن أطباعهم التافهة ما ينشأ عن الشر

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

المستصغر من حرائق مروعة»^(١) ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فياذن الله وليعلم المؤمنين﴾ وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو اذفءوا، قالوا: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يؤمئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون﴾^(٢).

لقد استفاد المسلمون منها دروساً كثيرة، وعرفوا منها مواضع ضعفهم وقوتهم، وتعلموا بالتجربة ما ينبغي أن يكون عليه المجاهدون في سبيل الله، من صدق الإيمان بالعميدة التي يؤمنون بها، ومن الإخلاص والتجرد لها من كل شاغلة من شواغل الدنيا، ومن الثبات والصبر على لقاء العدو، وعدم التضعف والتخاذل حين يشتد البأس وتثقل الوطأة ويحمى الوطيس، ومن التوجه إلى الله وحده والاعتماد عليه في استمداد المعونة والنصر. وقد ضرب الله مثلاً لهذا النوع من المجاهدين الصادقين في قوله سبحانه: ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾ فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة

(١) فقه السيرة.

(٢) سورة آل عمران آيتا ١٦٦، ١٦٧.

واللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾ . . . فهؤلاء وأمثالهم من المؤمنين الذين أخلصوا قلوبهم ونفوسهم لله، هم الذين يستحقون نصر الله وتأييده وتسديده.

معركة فلسطين ومعركة أحد

ولعل أقرب المعارك إلى أذهاننا شبيهاً بهذه المعركة «معركة فلسطين»، فقد تعلمنا منها كثيراً من الدروس، وعرفنا مواضع ضعفنا وقوتنا، وأمانتنا وخيانتنا، وتماسكنا وتخاذلنا؛ ولسنا من حالنا كل ثغرة كشفتها لنا هذه التجربة، فأخذنا نعالجها ونعمل على سداها: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

كان ما نزل من القرآن في غزوة أحد تعزية وتعلية للمؤمنين

وكما أنزل الله في شأن غزوة بدر سورة الأنفال، يعلم فيها المؤمنين مبادئ القتال وآدابه، وما يجب عليهم عند لقاء العدو من الثبات والصبر وكثرة ذكر الله وطاعة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وينبغي أن يجذروه من التنازع والخيانة والغرور

(١) سورة آل عمران الآيات ١٤٦-١٤٨.

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٦.

والتولَّى عند الزحف.. أنزل الله في شأن «غزوة أحد» نحو
 ستين آية من سورة آل عمران، يبيِّن فيها للمؤمنين ما كان من
 أخطائهم في تطبيق تلك المبادئ التي تعلموها، وأراهم نتيجة
 هذه الأخطاء رأى العين؛ ولكنه لم يتركهم في غمرة اليأس الذي
 يقتل النفوس ويضعف الحمية، بل مسح على أحزانهم في رفق
 ورحمة، ومزج العتاب الرقيق بالدرس النافع، وبين لهم أن الهزيمة
 لا تنال من شرف الغاية التي يقاتلون من أجلها، ولا من سمو
 المبادئ التي يدافعون عنها؛ فبدوهم هو أسمى المبادئ، وغايتهم
 هي أشرف الغايات، وما النصر والهزيمة إلا عارضان يتداولان
 الناس، وسنة من سنن الله في الخليقة..

فِيَوْمٍ عَلَيْنَا وَيَوْمٍ لَنَا وَيَوْمًا نُسَاءُ يَوْمًا نُسَرَّ

ثم بين لهم أن هذه الهزيمة لم تكن شرًا يراد بهم؛
 إنما كانت محنة أراد الله بها تمحيص المؤمنين المخلصين، وكشف
 النقاب عن المنافقين الخادعين، وفرصة صالحة هيأها الله
 للمؤمنين ليتخذ منهم شهداء؛ فالشهداء هم الصفوة الخالصة
 التي يختارها الله من بين المجاهدين في سبيله، لِيُسَبِّحَ عَلَيْهَا مَنْ
 فَضَلَهُ مَا يَشَاءُ.. ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ
 كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ * إن يمسسكم قرحٌ فقد مسَّ القومَ قرحٌ مثله وتلك
 الأيامُ تُداولها بين الناس وليعلمَ الله الذين آمنوا، ويتخذَ منكم

شهداء والله لا يحب الظالمين * ولِمَحْصِ اللّٰهِ الَّذِينَ آمَنُوا
 وَيُحَقِّقَ الْكَافِرِينَ * أم حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ
 الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ
 الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١١﴾ .

وهكذا جعل الله، سبحانه، يواسي المؤمنين في محنتهم،
 ويعزيم في مصيبتهم، ويكشف لهم عن نواحي العبرة في
 أحداثها ومواقفها، ويحذّرهم ألا يُسَلِّمُوا قِيَادَهُمْ إِلَى الْكُفَّارِ
 وَالْمُنَافِقِينَ، أو يستمعوا إلى أراجيفهم عن الشهداء الذين قتلوا
 في سبيل الله؛ فَحَسِبَ الشَّهَادَةَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عِنْدَهُ مِنْ حَسَنِ
 الثَّوَابِ: ﴿وَلَنْ نُقَاتِلَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ تُقَاتِلُوا لَكُمْ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ
 وَرِحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَنْ نُقَاتِلَكُمْ أَوْ تُقَاتِلُوا لَكُمْ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ
 وَرِحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ *﴾ (١١).

الشهداء لا يموتون

على أن أولئك الشهداء لم يموتوا كما يظن الذين لا يفهمون
 معنى الموت، ولا يدركون من الحياة إلا مظاهرها الحيوانية
 البحتة؛ إنما الشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُم

(١) سورة آل عمران الآيات ١٣٩-١٤٣.

(٢) سورة آل عمران آيتا ١٥٧ ١٥٨.

اللَّهِ مِنْ فَضْلِهِ، يَتَمَنُّونَ - لَشِدَّةِ مَا وَجَدُوا مِنْ طَيِّبِ الْحَيَاةِ
هناك - أَنْ يَعُودُوا إِلَى الدُّنْيَا لِيَقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَرَّةً أُخْرَى.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله،
صلى الله عليه وسلم: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ يَوْمَ أُحُدٍ جَعَلَ اللَّهُ
أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضِرَ، تَرَدُّ أُنْهَارُ الْجَنَّةِ وَتَأْكُلُ مِنْ
ثَمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنَ الذَّهَبِ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ..
فَلَمَّا وَجَدُوا طَيِّبَ مَأْكُلِهِمْ وَمَشْرِبِهِمْ وَحَسَنَ مَقِيلِهِمْ قَالُوا: يَا لَيْتَ
إِخْوَانُنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللَّهُ بِنَا، لَثَلَا يُوهِنُوا فِي الْجِهَادِ
وَلَا يَنْكَلُوا عَنِ الْحَرْبِ..! فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَبْلَغُهُمْ
عَنْكُمْ.. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فرحين بما آتاهم
الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم،
ألا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون* يستبشرون بنعمة من الله
وفضلي وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴿^(١).

(١) سورة آل عمران الآيات ١٦٩-١٧١.